نظرية النظم والنظرية السوسيرية:

إن من أهم الأفكار التي طرحها دي سوسير أن ميز بيّن ثلاثة مستويات للغة: **أولاً** اللغة كنظام، **وثانيًا** اللغة كصياغة، و**ثالثًا** اللغة كمنطق.[1]

والذي يشغلنا في هذه المستويات هو عده اللغة نظامًا ينقسم إلى قسمين: **زمنيً** و **وصفيً**، أما من الناحية الأولى فقد شبه اللغة بلعبة الشطرنج لأن انتقال هذه اللعبة من الهند إلى أوروبا أو غيرها لا علاقة له بنظام اللعبة العام ووضع القطع في زمن معين، بين اللاعبين تحدده اللعبة السابقة واللعبة اللاحقة، إذن وضع الأحجار متغير غير ثابت، وكذلك وضع اللغة، فاللغة في كل فترة زمنية تختلف عنها في الفترة الزمنية السابقة؛ لأنها تأخذ وضعًا جديدًا.[2]

وعليه تكون الكلمة جزءا في سياق زمني خاضعة له، لها علاقة بما سبقها وبما سيسبقها من كلماتٍ .

أما الجانب الوصفي فإنه ينظر إلى العلاقة السياقيةفي الكلمة،وفي هذا يقول سوسير: "بمعنى أنني أدرس وظيفة الكلمة في حالها الذي تقدم فيه اللحظة الراهنة، وليس في إطارها التاريخي، أي أنها تُدرس في علاقاتها المنطقية بينها وبين الكلمات الأخرى المستخدمة في سياق التعبير"[3] .

أما المستوى الثاني من مستويات اللغة عند سوسير وهو اللغة كصياغة أي الإشارة، وفي هذا المستوى نذكر المثال التالي:

نقول "ضرب علي حسامًا" فحسام هنا هو المفعول به الذي وقع عليه الفعل، وفي جملة "ضُرب حسامُ" فحسام هنا نائب فاعل وهو مفعول به في المعنى، وفي جملة "حسام ضربه علي" فيكون حسام مبتدأ وهو مفعول به، بمعنى أن حسامًا لم يتغير في كل التراكيب من حيث أنه وقع عليه الضرب، أي أنه يضل مفعولاً به، ومن هنا أفادت دراسات الأدب في النظر إلى البطولة في القصة فقد يكون البطل فاعلاً أو مفعولاً به، حرّك وعمل شيئًا أم وقعت عليه أعمال وعبّر عنه"[4]

إنّ العلاقة بين ما طرحه عبد القاهر والبنيوية يكمن في المنهج ، فكلاهما يدرس اللّغة كونها نظاما وصياغة. فاعتبار اللغة نظاما معناه دراستها بوصفها نظاما مثل أي نظام آخر، و بوصفها ظاهرة اجتماعية، أما اعتبارها صياغة فمعناه أنها هي التي تبرز قدرة المتكلم على استغلال كل طاقات اللغة في إطار نظامها الخاص، وهذا يعني أن هذا الأمر-اللغة كصياغة- يكشف لنا عن قدرتين:قدرة فردية خاصة بكل فرد،وقدرة لغوية عامة.

فالنظام يكمن في البنية العامة للتركيب اللّغوي الذي يخضع لقواعد اللّغة وفق النظرة الشمولية لطبيعة اللّغة في ذاتها لدى المتكلمين بها، أما الصياغة فتشترط السياق الذي تنجز فيه هذه اللّغة، فإذا نظر الباحث إلى اللّغة بصفتها بنية عند عبد القاهر وغيره، فإنّه من طبيعة هذه البنية في الفكر اللّغوي الحديث أنها تتآلف من عناصر يكون من شأن أي تحويل يعرض للواحد منها أن يحدث تحوّلا في باقي العناصر الأخرى، وهو ما ذهب إليه عبد القاهر في

---

[1] ينظر: نبيلة إبراهيم، نقد الرواية من وجهة نظر الدراسات اللغوية الحديثة، مكتبة غريب، القاهرة، ص 22

[2] ينظر: صلاح فضل، النظرية البنائية في النقد الأدبي، مكتبة الأنجلو المصرية، ط2، 1980م، ص 32 وما بعدها

3De Saussire F : Cours de linguistique générale p18.

[4] ينظر:نبيلة إبراهيم، نقد الرواية ، ص 27 .

مفهومه للتعليق أو نظام العلاقات الذي يربط الظواهر ببعضها، ويوضح تأثير أجزاء الجملة أو العبارة في بعضها"[5]

وقد اتخذ دي سوسير من اللّغة ذاتها ميدانا لدراسته رافضا الاعتداد بأي معيار خارجي عنها،حيث يقول**:**"يجب أن يكون الانطلاق من اللّغة ذاتها"[6]ومن هنا بنى قاعدة جوهرية تدعو إلى اعتبار اللّغة منظومة لا تعترف إلا بترتيبها الخاص**.** وكان أعظم ما ميّز هذه المنظومة هو العلاقات التي تربط بين عناصرها"[7]وحين أثار هذه الفكرة أكدّ على "أنّ اللّغة منظومة لا قيمة لمكوناتها إلا بالعلاقة القائمة بينها، وبالتالي، لا يمكن للألسني اعتبار مفردات لغة ما كيانات مستقلة، بل إنّ لزاما عليه وصف العلاقات التي تربط هذه المفردات""وهو ما يؤكده عبد القاهر الجرجاني في العديد من المرات حيث يقول**:**"اعلم أنّ الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللّغة لم توضع لتعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأن يُضَمَّ بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها فوائد"[8]

ومما قدمه فاردينان دي سوسير أيضًا في مجال علم اللغة تفرّيَقه بين اللغة والكلام، على اعتبار أن اللغة منظومة من الأصوات الدالة المتعارف عليها في مجتمع ما، فهي "كنز يدّخره الأفراد الذين ينتمون إلى مجموعة واحدة عبر ممارسة الكلام، وهي منظومة نحوية موجودة بالقوة في كلّ دماغ، وتحديدا في أدمغة مجموعـــة أفراد، إذ أنها لا توجد تامة عند الفرد وإنما لدى المجموعة"[9]

أمّا الكلام فهو الآداء الفردي ،وهو**:**

- الأنساق التي يستخدم الفرد الناطق من خلالها رمز اللّغة للتعبير عن فكره الشخصي**.**

-الآلية النّفسية - الفيزيائية التي تساعده على تجسيد هذه الأنساق"[10]

كما أنه الحالات المتحققة من استعمالات اللغة، ولا يكون واحد منها بل ولا يلزم أن تكون جميعها ممثلة للغة في كمالها ونقائها المثاليين .[11]

إن الفرق الذي قدمه دي سوسير بين الكلام واللغة سيشكل أحد الأعمدة التي يقوم عليها الدرس اللساني**.**كما كان لنظرية دي سوسير أثرها الواضح في مسارات علماء اللّغة حين ميّزوا بين مفهومين للغة**:**

دعا أحدهما**:**"La langue"، وهو ما يمكن ترجمته باللّغة أو اللسان (في اللّغة العربية)**.**

ودعا الآخر**:**"Parole"، وهو ما يمكن تسميته**:** الكلام أو الحديث"[12]

إن هذا التفريق يضرب بجذوره في أعماق الفكر اللغوي الإنساني ككل،والفكر العربي على الخصوص،وذلك حين تناول العلماء العربحد اللغة ونشأتها وكل ما يتعلق بها، كابن جني،وابنفارس ، والثعالبي ، والسيوطي ، إذ يعرفها ابن جني قائلا :" أمّا حدّها فإنها أصوات يعبّر بها كلّ قوم عن أغراضهم". وهذا المفهوم هو ما يتداوله العلماء الغربيون في فلسفتهم اللغوية،بل ويجعلونه أساس كل درس وتفصيل ،كما يؤكد ذلك.

---

[5] محمد عباس: الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص:16.

[6] De Saussire F : Cours de linguistique générale p20

[7] عدنان حسين قاسم: الإتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي،ص:30.

[8] عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، ص:539

[9] De Saussire F : Cours de linguistique générale p21

[10] Ibid p21

[11] ينظر: شكري عيّاد، بين الفلسفة والنقد، منشورات أصدقاء الكتاب ، 1990م، ص 88 .

[12] ينظر: محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص:17.

أمّا ما يعرف بـ"العلاقات"، فقد ذكره عند عبد القاهر الجرجاني وعالجه في وقت مبكّر داخل "نظرية النّظمّ"

وإذا عقدنا مقارنة بين رأي دي سوسير ورأي عبد القاهر في هذا الموضوع وجدنا أنّ عبد القاهر قد فرّق بين اللّغة والكلام، فاعتبر اللّغة من الجانب النظري في حيّزها المسمى (علم اللّغة)، واعتبر الكلام من الجانب التطبيقي في حيزه المسمى العلم (بالوضع اللّغوي)"[13]وفي هذا يقول: "واعلم أنا لم نوجب المزية من أجل العلم بأنفس الفروق والوجوه فنستند إلى اللغة ولكننا أوجبناها للعلم بمواضعها، وما ينبغي أن يصنع فيها، فليس الفضل للعلم بأن الواو للجمع والفاء للتعقيب بغير تراخ وثمع التراخي وأن لكذا وإذا لكذا، ولكن لأن يتأتى لك إذا نظمت وألّفت رسالة تحسن التخير وأن يعرف لكل ذلك موضعه"🗐🗁

إن هذا القول يجعلنا نقر بأن عبد القاهر يؤكد على ضرورة معرفة المتكلم للمعاني التي يريد أن يؤديها وهو ما أشار إليه دي سوسير حين أعطى للغة اهدافا معينة في التواصل،فهي التي تربط الصورة السمعية بالصورة الذهنية

ويتبين أيضا من المقارنة:

أنّ عبد القاهر الجرجاني يفرق بين العلم باللّغة وأوضاعها وما ينبغي للمتكلم أن يصنعه بها، فهي وسيلة يجب على المتكلم معرفة الغرض الذي يريد تأديته ويختار له ما يناسبه،وهو ما يقرره دي سوسير "من أنّ للّغة غرضا محددا في مجموعة وقائع اللّسان... وهي الجزء الاجتماعي للسان الخارج عن نطاق الفرد الذي لا يقوى هو وحده على خلقه ولا تغييره. وهذا يعتبر شبها قريبا جدا في استعمالات عبد القاهر الذي يرى أنّ الجانب المتعلق بعلم اللّغة ليس من فعل الفرد، وإنّما فعل الفرد يكمن في التكلم والتخير للموضع الذي يختاره في الوسط الاجتماعي كتخيّره مثلا لموضوع (الرسالة)، التي يكون مضمونها اتّصالا اجتماعيا أو تناولا قريبا من هذا الاتصال. ويحصل التّلاقي في هذا المجال بين دي سوسير و عبد القاهر حول استحالة معرفة كنه اللّغة وأسرارها"[15]

وحقيقة الأمر أن ما سماه عبد القاهر التعلق هو ما طرحه دي سوسير تحت مسمى العلاقات،كما أن عبد القاهر يسمي النظم في حين يطرح دي سوسير النظام والبناء و"لم يستعمل قط لفظة "بنية" إلاّ أنّه استعمل عبارات تشير إلى جوهر فكرتها وتكشف عن ماهيتها، وتقفز في هذه العبارات، فكرة النسق أو النظام، الذي يبنى على سمة "الشمولية" وهي من أخصّ خصائص البنيوية؛ لأنّها تتخذ من العلاقات بين العناصر لا العناصر ذاتها موطن عنايتها"[16]

ويظهر كلامنا هذا عند عبد القاهر الجرجاني في قوله:"لا نظم في الكلم ولا ترتيب حتّى يعلق بعضها ببعض، ويُبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[17]

وعليه كان لزاما علينا أن نعترف بأن عبد القاهر قد كان سباقا في إرساء اللبنات الأولي للدرس اللغوي الحديث

أما من حيث طبيعة العلامة اللغوية فإن عبد القاهر الجرجاني وديسوسير يشتركان في النظر

---

[13] ينظر: نفسه ص:18.

14ينظر: عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص86، ص169؛ De Saussire F : Cours de linguistique générale p16.

[15] محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني،ص:19.

عدنان حسين قاسم: الاتجاه الأسلوبي البنيوي في نقد الشعر العربي،ص:16.34

عبد القاهر الجرجاني، دلائل الإعجاز، ص:17.55

إلى طبيعتها حيث يقول عبد القاهر الجرجاني:"إن اللّغة تجري مجرى العلامات والسِّمات ولا معنى للعلامة أو السِّمة حتّى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلا عليه"
أما دي سوسير فيري أن العلاقة بين الدال والمدلول اعتباطية، وأن الرمز اللغوي عبارة عن اتحاد أمرين:الأول صورة صوتية سمعية والآخر صورة ذهنية "ويميز بين الكلمة والشيء، ويقصد بالكلمة ما نسمعه أو ننطقه أو نكتبه أو نقرؤه، وهي المظهر التعبيري الحسي لما يتمثل بالرمز اللغوي، وأشار سوسير إلى أن التصور concept وهو المدلول يتم التعبير عنه بصورة سمعية (الدال) ورمز لكل منهما بالمعادلة الآتية: مدلول signifié ودال signifiant حيث الدور للأصوات بوضع الرمز اللغوي في مكان محدد في متوالية من الأصوات، وهذا الرمز ما هو إلا جمع نفساني بين دال أو مدلول، ويقصد بذلك أن الدال لا يوجد متحداً مع مدلول، وعند انعدام المزج بينهما لا تبقى إلا الصورة السمعية أو الذهنية أو النفسانية لمتوالية من الأصوات، فمثلاً نجد في اللغة العربية الأفعال: (كتب، جلس) تشير إلى دال أو تصور يمتزج بالمدلول، ويمكن تشبيه العلاقة بين التصور (الدال) والكلمة (المدلول) بالورقة التي لها وجهان، الوجه الأول هو الدال والوجه الثاني هو المدلول (الوجه والظهر للورقة). لذلك لا يمكن وجود وجه للورقة دون وجود ظهرها، ولذلك يستحيل وجود مدلول دون وجود دال.[19]
ومن جانب آخر يشير الجرجاني إلى موضوع العلامات والسمات، وأنه لا معنى للعلامة أو السمة حتى يحتمل الشيء ما جعلت العلامة دليلاً عليه، وهو بذلك يشير إلى الدال والمدلول الذي ذكره سوسير.[20]ولتوضيح ذلك أكثر، ذكر سوسير معنى لفظ الأخت soeurبأنهليس مرتبطاً بأي علامة قد نتخيلها داخل سلسلة أصوات لفظة الأخت: s-Ö-r وهي أصوات اتخذت وسيلة كصوت دال، لأنه يمكن لهذه العلامةأن تصور بأية سلسلة أخرى من الأصوات تكون دالة."[21] ويطرح عبد القاهر مثالا حين يقول"أن نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقتف في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه ما تحراه.فلو أن واضع اللغة كان قد قال"ربض" مكان "ضرب"،لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد"[22]

ولذلك فهما يتفقان في كون الصوت لا معنى له إلا إذا حمل بعداً دلالياً، وأن الدلالة ما هي إلا تواضع اجتماعي يقتضيه الفكر، وأن الاختلاف بين اللغات يكون بسبب الاختلاف بين الدال والمدلول والعلاقة بينهما عند كل قوم.
وإذا أنعمنا النظر فيما قاله عبد القاهر ،وجدنا الثنائية اللغوية الشهيرة (الدال والمدلول)،لا تفارقه،بل إنه جعلها المنطلق الأول في حديثه، وهذه الثنائية تظهر بجلاء في استعمالات **ديسوسير** فهو يصرّح بها في قوله**:**"أن الرابط الجامع بين الدال والمدلول اعتباطي، وأن العلامة هي مجموع ما ينجم عن ترابط الدال والمدلول" وبالتالي إنّ العلامة الألسنية هي أيضا اعتباطية**.**
إن قول ديسوسير (اعتباطية)، معناه أنّه لا معنى للعلامة في ذاتها، وهو ما يذهب إليه

---

[18]عبد القاهر الجرجاني، أسرار البلاغة، ص:376

19De Saussire F : Cours de linguistique générale p85

2 ينظر: ، عبد القاهرالجرجاني ، أسرار البلاغة، ص356.

[21]De Saussire F : Cours de linguistique générale p86

[22]عبد القاهر الجرجاني دلائل الإعجاز ص 49

الجرجاني حين يقر أنه لا معنى للعلامةحتّى يكون لها مدلول، وتتطابق فكرة عبد القاهر تمام المطابقة مع فكرة ديسوسير في كثير من الوقفات التعليلية"
ويمكننا أن نبين الآن أهم النقاط المشتركة بين الرجلين في النقاط التالية:[24]
-لا معنى للصوت ما لم يكن بعد دلالي ومعنوي.
-إن الدلالة اللّغوية هي مجرد اصطلاح وتواضع اجتماعي بما يقتضيه الفكر.
-اختلاف اللغات يعود إلى الاختلاف في عملية التواضع على الدال والمدلول عند كلّ قوم.
والفائدة المستخلصة من رأي العالمين عبد القاهروديسوسير أنّ النظام اللّغوي قائم على العلاقة الجدلية بين اللّغة والفكر، وأن نشاط هذا النظام لا يظهر إلا داخل محورين، أولهما: وحدة العلامات أو الرموز والدلالة، وهي ما يعبّر عنها بالمعنى، وهاتان الوحدتان هما اللتان تصنعان التراكيب بمفهوم عبد القاهر، والأنساق بمفهوم ديسوسير كما يتقصدها المتكلم بفعله الإرادي أثناء عملية التعبير"
-إنّ مصطلح التأليف عند عبد القاهر يقابله مصطلح التركيب عند دي سوسير.
-إنّ الكلمة بمفردها عند عبد القاهر لا فائدة لها في تأدية المعنى، إلا بضمّها إلى أخواتها التي تكون مجموع الكلم أو البناء، وهذا ما يقابلـه تماما عند دي سوسير أنّ الكلمات المتفرقة لا تعني شيئا في التركيب إلا إذا كانت مجتمعة داخل وحدات متداخلة.-لا تفاضل للفظة على لفظة أخرى في رأي عبد القاهر ما لم تكن هناك دلالة تربط المعنى بمدلوله، وتفسير هذا عند ديسوسير أنّ لا معنى للعلامة إلا بعلاقتها بما ترتبط به من معنى كلّي.
-إنّ الصورة الكلامية عند عبد القاهر من خلال النّص تحدِّدها الوظيفة التعبيرية التي تؤدّيها الجملة إن كانت الجملة إخبارا (وهو التقرير)، أو استخبارا (وهو الاستفهام)، أو غيره مما يخدم ويوضح نوعية النسق، ويقابل كلّ هذا في رأي ديسوسير بصريح اللّفظ أنّ الجمل كذلك لها دورها في خدمة نظام الكلام الذي يحدّد النسق على قدر المعنى الوظيفي في الجملة الإخبارية والإستخبارية ... فليس من باب الصدفة أن تتوافق هذه الآراء بهذا الشكل الموضوعي المتسلسل المتطابق دون أن تكون هناك علل عملية تتعلق بتقنيات الدرس اللّغوي المحكم بين هذين العالمين مع التباين في الفارق الزمني البعيد بينهما، مما يرجح الحكم أنّ عبقرية عبد القاهر قد فاقت جهود ديسوسير بعامل السّبق والابتكار"

---

[23] ينظر: محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني، ص: 24
ينظر::نفسه ،ص:24، 24.25
[25] محمد عباس، الأبعاد الإبداعية في منهج عبد القاهر الجرجاني ص 27